

الشعبيّات في الزمن الحديث للدولة الأوروبية: نماذج الفاشيّات

■ أحمد زايد

بدأ الزمن الحديث للدولة الأوروبيّة بعد أن انفصلت عن النظام الكنسي الذي ساد فترة العصور الوسطى، عبّر صراعات فكريّة وعقدية شهدت حركة متعددة الأوجه، بدءاً من البعث الفني في عصر النهضة، وحركة الإصلاح الديني، والبعث الفلسفي والفكري على يد ديكارت وكانط، والبعث السياسي في عصر التنوير. وكل ذلك مهّد لقيام الثورة الفرنسيّة التي نقلت المجتمع الأوروبي إلى عهد جديد.

ولكن التطّور لم يَسِرْ في خطّ تقدّمي مستمر، وتعثّر عبّر أزمات اقتصادية وسياسيّة. ولقد كان لظهور النزعات الشعبيّة - والتي عبّرت عنها الفاشيّة والنازيّة خير تعبير - أثر كبير في هذه المسيرة؛ فقد أوقفنّها عن وجهتها لفترة من الزمن، وتركتها وهي تحمل الكثير من الآثار السلبية. كيف ظهرت هذه النزعات؟ وما تعريفها؟ وما خصائصها العامّة؟ وكيف تركت تأثيرات سلبية على جسد المجتمع والدولة؟ هذه الأسئلة هي موضوع هذا المقال. ويتأسّس الجدل هنا على فرضيّة مفادها أن هذا النمط من الفكر

■ أستاذ علم الاجتماع في جامعة القاهرة.

السياسي والسلوك السياسي قد حوّل منظومة الحداثة - التي تكونت على وعْد التنوير - إلى نمطٍ غليظ القلب والعقل، ويثبت منه نزعه استعلائيةً أصوليةً، لا تزال أصداءها تظهر هنا وهناك في أرجاء مختلفة من المعمورة.

أولاً: النزعة الشعبويّة: مدخل إلى المفهوم

تشير النزعة الشعبويّة إلى موقف سياسي يركّز في أفكاره وأنشطته السياسيّة على «الشعب»، حيث توضع الجماعة أو الجماهير في مقابل النخبة. وتشتق كلمة الشعبويّة Populism لغوياً من الكلمة اللاتينيّة Populus وتعني الشعب. فالركون إلى الشعب - تأييداً ومناصرة، ورفعاً لشعاراته ومطالبه - هو الأصل في مفهوم الشعبويّة. ولكننا يجب ألا نأخذ المفهوم بهذه السذاجة، فثمة تعقيدات ومشكلات تكتنف المفهوم من جراء تعدد مظاهر الفهم لما يطلق عليه الشعبويّة، وتعدّد الخبرات التاريخيّة للنظم السياسيّة في الزمن الحديث لأوروبا والمجتمعات النامية، والمجتمعات الشيوعية في أوروبا الشرقية وفي الصين وفيتنام وأمريكا اللاتينيّة، بالإضافة إلى النظم السياسيّة الناتجة عن حركات التحرر في الدول التي كانت مستعمرة. فقد ظهرت صور متعددة من النظم الشعبويّة عبر كل هذا التنوع، إلى درجة يصعب معها طرح مفهوم موحد لما يطلق عليه النظام الشعبوي. بل إن المسألة تتعدّد على نحو أكبر إذا أضفنا البعد الأيديولوجي للمفهوم، فثمة أطراف من الشعبويّة تستغرق كل الألوان الأيديولوجيّة بدءاً من النزاعات الليبرالية الديمقراطية وحتى النزعات الاشتراكيّة الدكتاتوريّة. وقد أدت كل هذه المشكلات إلى أن يدقق الباحثون في الموضوع قبل أن يُصدروا أحكاماً حول وصف نظام معين بأنه شعبي. وقد ظهر هذا القلق بوضوح في الكتاب الكلاسيكي الذي كتبه جلنر Gellner ولونسكو Lonsescu عام 1969؛ فقد أكدا على أهميّة المفهوم، ولكنهما في الوقت نفسه أكدا على صعوبة فهمه، وعمّا إذا كانت الشعبويّة تشير إلى مذهب أو حركة، حيث تتشكّل على صور مختلفة ومتناقضة، بحيث يصعب تطوير اسم واحد يستغرق كل تنويعاتها¹.

G. Lonsescu and E. Gellner, Populism, London; Macmillan Publishing Co.1969.

ومع ذلك فبوسعنا أن نضع أيدينا على عدد من الخصائص العامة التي تشكّل نمطاً مثالياً للشُّعْبُوِيَّة كنظام سياسي. ولكن يجب ألاّ نشغل - ونحن بصدد البحث عن هذه الخصائص - بما إذا كانت الشُّعْبُوِيَّة حركةً أم مذهباً أم نظاماً سياسياً، فمن المحقق أن كل هذه المفاهيم متشابكة؛ فالنظام السياسي قد ينشأ عن عقيدة مذهبية، وقد ينتج عن نضال سياسي عبّر حركة أو ثورة. وتؤكد خبرات عديدة عبر التاريخ الحديث عن صحة هذا الافتراض، فمعظم النظم الشموليَّة التي عرفها العالم انبثقت عن عقائد سياسيَّة، وجُلُّها ارتبط بحركات سياسيَّة أو ثورات أو كليهما معاً.

تشير النزعة الشُّعْبُوِيَّة إلى موقف سياسي يركّز في أفكاره وأنشطته السياسيَّة على «الشعب»، حيث توضع الجماعة أو الجماهير في مقابل النخبة. وتشتق كلمة الشُّعْبُوِيَّة Populism لغويّاً من الكلمة اللاتينيَّة Populus وتعني الشعب.

ومن أولى الخصائص التي تميّز الشُّعْبُوِيَّة خضوعها لفكر عقائدي؛ فلم توجد شعبوِيَّة في أوروبا أو خارجها إلا وكانت منبثقة عن أيديولوجيَّة. وتقوم الايديولوجيَّة الشُّعْبُوِيَّة في الغالب على رؤية للمجتمع على أنه ينقسم إلى جماعتين متعارضتين: الشُّعْب في مقابل النخبة السياسيَّة، التي توصف في الغالب على أنها نخبة فاسدة. وبناءً عليه يفترض في السياسات الشُّعْبُوِيَّة أن تعكس الإرادة العامة للشُّعْب، في مقابل القضاء على النخب الفاسدة². وغالباً ما

توصف الايديولوجيَّة الشُّعْبُوِيَّة بأنها ايديولوجيَّة رقيقة thin-centered، ويعني ذلك أنها ايديولوجيَّة تنبع من الممارسة، من الاحتكاك والتفاعل اليومي الذي يخلق تأويلات وآراء تتجمّع في إطار أيديولوجي، لا يتسم بالحسم والشمول بقدر ما يعالج قضايا متفرقة تخصّ الشُّعْب، تاركاً عدداً كبيراً من الأسئلة دون إجابة، وتتداخل الأفكار الشُّعْبُوِيَّة مع حدود الايديولوجيات الأخرى، فتارة نحو اليمين وتارةً أخرى نحو اليسار. ومن ثم فإنها تختلف عن الأنساق الايديولوجيَّة الأكثر اتساقاً مثل الاشتراكيَّة والليبراليَّة. إنها

Cas Mudde, "The populist Zeitgeist". Government and opposition, vol.39, No.04. p.543.



أيديولوجية ترکز على فكرة محورية، تلتف حولها الممارسات والأفعال السياسية، بل وتلتف حولها تبريرات مختلفة فكرية وتراثية تقاليدية، فضلاً عن شعارات ورموز عديدة تميّز الفكر الأيديولوجي الشعبي، وتضفي عليه صبغة معينة.

ومن جانب ثان ترتبط الشمولية - في ممارساتها السياسية - بالأبعاد الخطابية Discursive التي تتصف بالترار والشيوع. ومن هنا توصف الشعبية بأنها تقوم على ممارسات سياسية تعتمد الخطاب والبلاغة اللغوية طريقاً للتعبير عن ادعاءاتها الأخلاقية في نضالها الشعبي ضد أشكال السيطرة الأوليغاركية، ومن هنا فإن الشعبية تعتمد خطابات تقوم على بُعد شقاقي في صراعاتها السياسية³. ومن ثم فإن هؤلاء الذين يعتقدون أنهم يتحدثون باسم الشعب - والذين نطلق عليهم الشعبيين - يعتمدون على بلاغة اللغة، التي تفترض انقساماً بين الأنا والآخر، ولسان حالهم يقول: نحن الذين نحمي حقوق الشعب، وندافع عنها، ونقف بجانبه، في مقابل أولئك الآخرين الذين يمارسون السياسة على حساب الشعوب. وهكذا تُحوّل البلاغة النزعات الشعبية إلى مجرد خطاب يخلط الأيديولوجيا باللغة، وي طرح استراتيجيات سياسية مغايرة، غالباً ما تكون أنصع وأوضح في الخطاب، أما على أرض الواقع فتكون النتائج مختلفة.

ويرتبط خطاب البلاغة في النزعات الشعبية بنمط شخصية دُعاة هذا الاتجاه؛ فغالباً ما يميّز هؤلاء بالتعالى والانغلاق على الذات وجمود الفكر، وهي سمات لخصها أحد الباحثين وهو يتحدث عن نمط الممارسة السياسية للسياسة الأمريكية، والذي وصفه بأنه نمط يرتبط بجنون العظمة. لم يكن هوفستاتر Hofstadter - الذي استخدم هذا المفهوم في منتصف الستينيات - يقصد النزعات الشمولية⁴؛ وإنما قصد وصف السلوك الأمريكي في ممارسة

3 - K. A. Hawkins, "Is Chavez populist; Measuring Populist Discourse in Comparative Politics", Comparative Political Studies, vol.42.

4 - انظر كتابه المنشور عام 1964، وأعيد نشره عام 2008؛

R. Hofstadter, The Paranoid Style in American Politics and other Essay, Vintage Books, 1964 (2008).

السياسة، ولكن هذا الوصف يصدّق بجلاء على الطريقة التي يعبر بها أصحاب النزعات الشموليّة عن أفكارهم وآرائهم. فهم يميلون إلى الشكّ، والمبالغة، والتحذير الدائم من المؤامرات التي تحاك ضدهم وتأكيد الهوية. وقد استخدم بعض الباحثين هذه الأوصاف التي أطلقها هوفستاتر على القادة الأمريكيين في وصف قادة الحركات الشعبيّة. وقد أكّدت هذه الدراسات أهمية خلُق العداوة والانقسام في بثّ الروح الشعبيّة، حيث تصبح العداوة أحد مجالات تأكيد الهوية من قِبَل القادة الشعبيين، الذين لا يثقون - بحال من الأحوال - في الآخرين⁵، وتميل الشخصية الشعبيّة إلى

يتميّز الشعبويّون بالتحالي والانغلاق على الذات وجمود الفكر، وهي سمات لخصّها أحد الباحثين وهو يتحدث عن نمط الممارسة السياسيّة للسياسة الأمريكيّة، والذي وصفه بأنه نمط يرتبط بجنون العظمة.

استغلال الأزمات، والخوف من حالات الفوضى أو زوال الامتيازات، حيث يكون الشغل الشاغل لهم حصولهم على دعم شعبي بتبنيهم لمطالب الشعب، والركوب عليها للوصول على الحكم⁶.

وترتبط النزعات الشعبيّة بذخيرة من الأفكار والممارسات تجعل لها سمناً معيناً، وتشكّل معالم استراتيجيتها في مواجهة الآخرين وفي تحقيق أهدافها. ومن المعروف أن لكل حركة اجتماعية ذخيرة repertoire تشكّل تاريخ نضالها، وفكرها، وطريقتها في التعامل مع

المشكلات التي صادفتها، وتحالفاتها مع الحركات الأخرى؛ إنها جماع ما تملكه الحركة من مصادر وقدرات تُمكنها من الفعل السياسي⁷. وتساعد عُدّة الحركة أو ذخيرتها على تكوين استراتيجية لفعل الحركة. ويتضح هذا الأمر بجلاء في الحركات الشعبيّة في سياساتها وبناء ذخيرتها النضالية على

5 - E. Laclau, On Populist Reason, Verso, 2005.

6 - محمد مفضل، ميكانيزمات الخطاب الشُّعبي بنكيران نموذجاً، متاح على الموقع: www.hespress.com/orbites336630

7 - انظر حول مفهوم (العدة) repertoire في دراسة الحركات السياسيّة: الدولة والحركات الاجتماعيّة، ترجمة أحمد زايد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2017، الفصل الأول.



عمليات تعبئة الجماهير، والدعوة إلى إعادة توزيع الثروة أو تأميمها إذا كانت الحركة تنتهج نهجاً اشتراكياً. وتعمل كل حركة على جمع مؤيدين لها عبر السياسات والاستراتيجيات التي ترسمها. فإذا كانت الحركة ذات ميل اشتراكي فإنها تخاطب الفقراء والفئات المحرومة، وتحشد الرأي نحو الإطاحة بالنظم القائمة من أجل إعادة توزيع الثروة على أسسٍ عادلة. وإذا كانت الحركة تتبع من توجهٍ يميني فإنها تحاول أن تقنع الجماهير المحافظة - التي لها مصلحة في استمرار الأمور على ما هي عليه - بأن تلتف حولها من أجل إزاحة خطر اليسار. وفي ضوء التنوعات في الاستراتيجيات فإن الحركات الشعبوية - مثلها مثل أي حركات أخرى - لا تعرف بحدودها التنظيمية أو أيديولوجيتها، بل بالأساليب الاستراتيجية التي تتبعها، والتي تستهدف حشد أكبر عدد من الجماهير بشكل مباشر وشخصي ودون وساطة تنظيمية أو مؤسسية⁸.

ومن هنا تتشكل طبيعة القيادة داخل الحركة الشعبوية؛ فالحركات الشعبوية لا تعرف الحراك السياسي الصاعد من أسفل؛ ولكنها تعرف نقيضه، أعني الحراك القادم من أعلى، ومن هنا تلعب القيادة دوراً رئيساً في الحشد الشعبوي، وتصبح القيادة أحد الأركان الأساسية فيه. ومن هذا المنطلق يذهب دارسو الحركات الشعبوية إلى التركيز على دور القادة السياسيين في الحركة، وعلاقتهم بالفاعلين السياسيين فيها. وتركز التحليلات هنا على النزعة المركزية لقيادة الحركات الشعبوية، والطابع الكارزمي لهذه القيادة. ولقد أكدنا آنفاً أن النزعات الشعبوية لا تملك نظاماً مكتملاً من الأيديولوجيا، أو الأهداف المحددة، ومن ثم فإنها لا تملك منظومة من القيم المركزية الحاكمة. ويؤدي ذلك إلى شخصنة ممارساتها السياسية؛ ونعني بذلك أنها ممارسات ترتبط بزعيم الحركة. ويتحدث الباحثون هنا عمّا يسمى «سياسة الشخصية» politics of personality⁹؛ أي

8 - K. Weyland, "Clarifying a Contested Concept; Populism in the Study of Latin American Politics" Comparative Politics, vol.34. No.1. p. 14.

9 - P. Taggart, Populism, Buckinsham; Open University Press, 2000. p. 101.

السياسة التي تلتف حول شخصية بعينها، ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أن يكون كل قادة الحركات الشعبويّة من الشخصيات الكارزمية، فثمة حركات شعبية عديدة لم تشهد قيادات كارزمية. فالكارزما تُعدُّ سبباً ضرورياً في بعض الأحيان، وليس سبباً كافياً لقيام الحركة الشعبويّة. وسواء كان قائد الحركة يتمتع بسمّة الكارزما أم لا، فإن ممارساته سوف تكون مركزية وشخصيّة. وهذان هما السّمَتان الرئيستان في قيادات النزعات الشعبويّة، ورغم أن مركزية القيادة وما يصاحبها من حراك نازلٍ من أعلى قد تكون مفيدة في نجاح الحركة الشعبويّة؛ فإنها تشكّل أحد أوجه القصور المهمة،

فالنجاح في الحركة يرتبط - في هذا الطرف - بشخص معين. يتوقع غيابه في أي لحظة، ولذلك فإن بعض الحركات الشعبويّة تضعف بمجرد شغور مكان قائدها، حيث يفتر الحراك وتخبو الكارزما إن كانت موجودة، وتضمحل ذخيرة الحركة.

نكاد نكون قد فرغنا الآن من بسط تعريف للنزعة الشموليّة، وتحديد أهم سماتها الايديولوجية والتنظيمية والشخصية. وننتقل الآن إلى بحث جذور النزعات الشعبويّة في أوروبا، من الناحيتين البنائية والفكرية.

تُعدُّ الكارزما سبباً ضرورياً في بعض الأحيان، وليس سبباً كافياً لقيام الحركة الشعبويّة. وسواء كان قائد الحركة يتمتع بسمّة الكارزما أم لا، فإن ممارساته سوف تكون مركزية وشخصيّة. وهذان هما السّمَتان الرئيستان في قيادات النزعات الشعبويّة.

ثانياً: النزعات الشعبويّة في أوروبا: الجذور البنائية والفكرية للفاشية

تعمل الشعبويّة على اختزال مشكلات المجتمع في أفكار ضحلة ساذجة، نابعة من شكل من أشكال التزمّت والالتفاف حول فكرة مناصرة الشعب في مجموعه، وغالباً ما تكون هذه الفكرة معادية للتعددية الثقافية والديمقراطية وحقوق الإنسان. حقيقة أن هناك نزعات شعبية لها طابع إنساني، خاصة تلك التي تدافع عن الفقراء، أو تحاول أن تقلل من مظاهر عدم العدالة الاجتماعية. ولكن أخطر النزعات الشعبويّة هي تلك التي



تعادي التعددية والديمقراطية وحقوق الإنسان، أو تختزل التاريخ ورؤية العالم في حدود ضيقة. ولقد كانت النزعات النازية والفاشية أكثر أشكال الشعبوية تطرفاً وانحيازاً نحو العداء للديمقراطية وحقوق الإنسان؛ فقد اختزلت التاريخ في رؤية عرقية ضيقة، ترفع من شأن الجنس الجرمانى وتقلل من مكانة الأجناس الأخرى. وثمة صعوبة في الاتفاق على تعريف محدد لما تعنيه الفاشية، إلا أن بعض الباحثين يحددون خصائص ثلاثاً تميز هذا النوع من النزعات السياسية، وتتلخص هذه الخصائص الثلاث في فهم السياسة على أنها صراع لا بُدَّ أن ينتصر فيه الأقوى، فالبقاء للأصلح والأقوى (لاحظ تأثير دارون)؛ ولذلك يجب أن تعمل الدولة على اكتساب أكبر قدر من القوة، لا عبّر تبني أيديولوجية اشتراكية أو ليبرالية، فلا مكان هنا لهذه الأيديولوجيات، ولكن سيادة الدولة وقوتها وهيمنتها؛ ومن ثم فلا ضرورة للأحزاب والديساتير، وإنما الضرورة للقوة المطلقة، فلا شيء يعلو على الدولة، ولا شيء ضد الدولة¹⁰. ويمكن أن نضيف خصيصة رابعة تتعلق بالنزعة النازية في ألمانيا، ولا تتعلق بالضرورة بكل صور الفاشية، وهي التحيز إلى الأصول العرقية في مقابل الأعراق الأخرى. وإذا ما طبقنا نظريات علم اجتماع المعرفة؛ فإننا يمكن أن نفسّر ظهور مثل هذه المشاعر في السياق الأوروبي في ضوء بُعدين: أحدهما بنائي، والآخر فكري. نطور هنا الافتراض القائل بأن النزعات الأيديولوجية تتخلق في رحم سياق اجتماعي/اقتصادي، وفي ضوء منظومات فكرية تنتشر داخل نسيج هذا الفضاء. فحسب ما يذهب إليه كارل مانهايم فإن كل منظومة فكرية تكتسي صبغة أيديولوجية أو طوباوية بحسب الظرف التاريخي الذي تظهر فيه والفئة الاجتماعية التي تستعملها؛ إنها تعبّر عن ذهنية الطبقات الصاعدة أو الهابطة، حيث تسيطر الطوباوية على الأيديولوجية لدى الطبقات الصاعدة وتختفي لدى

Anthony J. Hoes, "Facism: "Facism: The Past and The Future" Comparative Political Studies - 10 vol, 7 No. 1 April 1974.

الطبقات الهابطة¹¹. وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر ظهور الايديولوجية الفاشية في أوروبا في ضوء العاملين التاليين:

1 - أزمة المجتمع الرأسمالي، والتي تمثلت ليس فقط في تفاقم مشكلات الفقر والبطالة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى (امتدت من 1914 - 1919)، وبداية مطالبة المستعمرات بالاستقلال. ويمكن القول بأن النظام الليبرالي نفسه هو الذي تحمّل النصيب الأكبر من هذه الأزمة. فقد أيضاً هو الآخر في أزمة من جراء الاستقطاب الشديد الذي

حدث بين دعاة الاشتراكية ودعاة الليبرالية؛ لقد كان هذا الصراع مصحوباً بنوع من الاستقطاب الطبقي، والاستقطاب الأيديولوجي، الذي يتشكّل على مصالح اقتصادية واجتماعية مختلفة. لقد دخل الفاشيون على خط هذا الصراع بتوجهٍ يخرج عن كل الأطر الصراعية القائمة، بنشر ادعاءات ومغالطات تنتصر للشعب، وتدعو إلى وحدة الأمة، وإلى قوة الدولة، بنظامها السياسي والعسكري، بحيث تصبح الدولة فوق المجتمع، وتصبح الأمة فوق المصالح العابرة للطبقات¹². ثمّة نداء هنا نحو

لقد كانت النزعات النازية والفاشية أكثر أشكال الشعبيّة تطرفاً وانحيازاً نحو العداء للديمقراطية وحقوق الإنسان؛ فقد اختزلت التاريخ في رؤية عرقية ضيقة، ترفع من شأن الجنس الجرماني وتقلل من مكانة الأجناس الأخرى.

تحويل الرأسمالية إلى رأسمالية دولة، وخلق نوع من التنظيم السياسي والاجتماعي الأحادي، الذي يتجاوز كل التناقضات ليضع الجميع على مسار واحد وعلى خط واحد. وادعت الحركة الفاشية الناشئة في إيطاليا، والحركة النازية الناشئة في ألمانيا، أنها تقوم بثورة لصالح الشعب؛ ثورة تعيد صياغة الرأسمالية بتحقيق مزيد من التقدم التقني، ومزيد من

11 - انظر كارل مانهايم، الايديولوجيا والبيوتوبيا، ترجمة محمد رجاء الدريني، شركة المكتبات الكويتية، سنة 1980 - عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، سنة 1993

12 - Peter R. Sinclair "Fascism and Crisis of Capitalist Society", The New German Critique, No.9, 1976. pp.87-112.

التصنيع ومزيد من السيطرة على السوق العالمي، ومزيد من السيطرة العسكرية للنظام السياسي، واستطاع الفاشيون أن ينشروا أفكارهم حول هذه الثورة الجديدة، التي زعموا أنها تقف في صف الشعوب إزاء كل صفوف السيطرة والاستغلال، وأنها الكفيلة بأن تخرج المجتمع الرأسمالي من أزمتته، وأن تتدقّق نحو مزيد من السيطرة على العالم.

2 - ولقد تواكبت هذه التناقضات في بنية النظام الرأسمالي مع ظهور أفكار محافظة تدعو إلى نوع من التشدد والغلو. ولا شك أنّ التيار المحافظ يشكّل أحد التيارات الرئيسة في الفكر الغربي منذ قيام الثورة الفرنسية. ولقد كانت ردود فعل بعض الفلاسفة - إزاء أحداث الثورة وما أدّت إليه من تغيّرات - ردوداً كاشفة عن موقفٍ محافظٍ وملتزمٍ، بل متشائمٍ إزاء الثورة وأحداثها. ولقد تجلّى هذا الموقف بشكلٍ واضحٍ في كتابات الفيلسوف الإنجليزي المحافظ إدموند بيرك (1729 - 1797)، والفيلسوفين الفرنسيين لويس دي بونالد (1754 - 1840) وجوزيف دي ميستر (1754 - 1821). لقد اعتقد هؤلاء جميعاً أنّ الثورة حطّمت القيم التقليدية الجمعية، وأدخلت نُظماً تقوم على المصلحة الشخصية والمنفعة والتعاقد. لقد حطّمت الثورة التكوين العضوي للمجتمع، وباعدت بين السلطة السياسيّة وعادات المجتمع وتراثه، وأحدثت صوراً عديدة من الفوضى¹³.

لقد استمرّ هذا التيار المحافظ قوياً داخل الفكر، وبدأ في تكوين أواصر قويّة مع عالم السياسة؛ حيث اتّجه الفكر المحافظ إلى التنبيه على مكامن الخطر، والدعوة إلى القوّة والتخلّي عن الأخلاق التي اعتقد المحافظون الأوائل أنّ الثورة الفرنسيّة حطّمتها. لقد انطلق الفكر المحافظ من أسس ماكيافيلليّة، وكان كتاب «الأمير» لماكيافيللي (1469 - 1527) أحد المصادر الأساسيّة لمثل هذا الفكر. وعندما يُذكر هذا الاتجاه في الفكر الغربي المحافظ فإننا نفكر في مصدرين: الأول هو النظرية الداروينيّة التي

13 - انظر الفصل الثاني من: أحمد زايد، علم الاجتماع بين النظريات الكلاسيكيّة والنقدية، دار المعارف، القاهرة، 1981.

رفعت شعار البقاء للأصلح، وحددت الصراع على أسس بيولوجية. والثاني يتبلور حول مذهب المفكر العنصري المعروف ليو شتراوس (1899 - 1973) الذي صاغه في النصف الأول من القرن العشرين. لقد كان شتراوس يؤمن إيماناً راسخاً بالتداخل بين السياسة والفلسفة، أو بين الفكر والعمل، وبضرورة تسخير الفلسفة لخدمة السياسة. وأكد على أن السياسة يجب ألا تتأسس على الأخلاق الفاضلة، بل يجب أن تميل إلى تحقيق الاستقرار بأي وسيلة كانت حتى وإن اعتمدت على الكذب والخداع واستخدام الحروب¹⁴.

تشق كلمة الفاشية

Fascism من الكلمة

اللاتينية Fasces، وهي

كلمة تعني حزمة من

نبات الدردار معلق بها

فأس، وقد كانت تستخدم

كرمز للعقاب في روما

القديمة في إشارة رمزية

بأنه يحاول أن يضم

الشعب كله في حزمة

واحدة، وأن الفأس جاهز

للعقاب في أي لحظة.

ثالثاً: النزعات الفاشية: الأهداف والتطلعات

تشق كلمة الفاشية Fascism من الكلمة

اللاتينية Fasces، وهي كلمة تعني حزمة من

نبات الدردار معلق بها فأس، وقد كانت تستخدم

كرمز للعقاب في روما القديمة في إشارة رمزية

بأنه يحاول أن يضم الشعب كله في حزمة

واحدة، وأن الفأس جاهز للعقاب في أي لحظة،

وقد أطلق موسوليني هذا الاسم على حزبه الذي

اعتلى مكان الصدارة في سلطة الحكم في

إيطاليا. ولقد كانت إيطاليا وألمانيا المركزين الرئيسيين للحركات التي

عرفت بالفاشية والنازية، ولكن مساحة الانتشار للأفكار الفاشية والنازية

كانت واسعة، فقد كان لها أنصار في مناطق جنوب وشرق ووسط أوروبا،

وكان لها أنصار أيضاً في أمريكا وفي بلدان كثيرة من جنوب العالم.

لقد بدأت بواكير النزعات الفاشية والنازية في أوروبا فيما بعد الحرب

العالمية الأولى، ووصلت إلى أوج ذروتها في نهاية ثلاثينيات القرن العشرين.

14 - انظر حول فكر ليو شتراوس - كريم محمد، أزمة الحداثة السياسية من منظور ليو شتراوس في

موجات الحداثة الثلاث، معهد العالم العربي للدراسات، متاح على الموقع www.alaalam.org

ولقد اتخذت هذه النزعات صورتين: إحداهما ظهرت في إيطاليا واتخذت اسم الفاشية، والثانية في ألمانيا واتخذت اسم النازية. وسوف نستخدم هنا لفظ الفاشية للإشارة إلى كل صور الفاشية التي انتشرت في أوروبا ومنها النازية الألمانية، التي ارتبطت بحزب العمل الاشتراكي القومي الألماني بقيادة هتلر، والفاشية الإيطالية التي ارتبطت بالحزب القومي الفاشي برئاسة موسوليني، وجبهة الأرض الأم والتي قادها إنغلبرت دولفوس Engelbert Dollfuss في النمسا، والاتحاد الوطني بقيادة أنطونيو سالازار António Salazar في البرتغال، وحزب أصحاب العقيدة الأحرار بقيادة ايوانيس متاكساس Ioannis Metaxas في اليونان، وحزب التمرد Insurgence بقيادة انتي بافيليتش Ante Pavelić في كرواتيا، والاتحاد القومي في النرويج بقيادة فيدكون كفيشلينغ Vidkun Quisling، والحركة الفاشية في إسبانيا والمعروفة، والتي أسسها José Antonio Primo de Rivera في عام 1933، والتي انضوى معظم أعضائها تحت حكم فرانكو¹⁵ فيما بعد. ذلك أنه رغم اختلاف المسميات فإن رؤية العالم والمفاهيم الايديولوجية المشتقة منها والأهداف والتطلعات، كلها واحدة تقريباً. ولعل استخدامنا لمفهوم النزعات الفاشية في عنوان هذا الجزء، وعبر هذا المقال، يكون رمزاً لما نرمي إليه هنا، من أن هذه النزعات لها أصول واحدة وتوجهات متشابهة، رغم اختلاف مسمياتها. فماذا عسى أن تكون هذه الفاشية، وما هي خصائصها العامة ومراميها السياسية.

وتقوم النظرة الفاشية - بناءً على ذلك - على نزعة قومية، تلغي التعددية وتناوئ الديمقراطية والليبرالية، وتسعى إلى فرض رأي واحد في ضوء مفهوم عن روح الأمة أو روح الجماعة، أو مجتمع الشعب، وهو ما تعبر عنه الكلمة الألمانية Volksgemeinschaft. في مثل هذا المجتمع لا يكون للفرد حرية أو مصلحة، بل إن حريته ومصالحته تخضعان إلى الأمة. ويخص الباحثون الفاشية في عدد من الخصائص منها¹⁶:

R. Soucy, Fascism, Encyclopedia Britannica.

- 15

16 - اعتمدنا في حصر هذه الخصائص على المرجع السابق.

1 - **العداء للماركسيّة أو الخوف منها:** يُظهر الفاشيون عداءً كبيراً تجاه النزعات اليسارية سواء أكانت نابعة من ماركسيّة متشدّدة أو رؤى اشتراكيّة ديمقراطيّة، ولم يكتفِ الفاشيون في إيطاليا والنازيون في ألمانيا باظهار كراهيتهم للاشتراكيّة؛ بل سلّطوا أعضاءهم للاعتداء على الحركات العماليّة اليساريّة، من ذلك ما فُعل بأنصار ممثلي العمّال والفلاحين المضربين في إيطاليا في عامي 1920 - 1921 من خلال فيالق الفاشيين ذوي القمصان السود، ولقد كون جماعاتٌ من المحاربين القدماء النازيين في ألمانيا مجموعات للاعتداء على الحركات اليساريّة، بل إن هتلر قد

أرسل - عندما اعتلى سدّة الحكم - آلافاً من الماركسيين إلى معسكرات التعذيب. ولقد سارت على كل الحركات الفاشيّة في أوروبا في المسار نفسه العدائي للماركسيّة وللأشتراكيّة، إلى درجة أن زعيم الحركة النازيّة في فرنسا أعلن أن الهدف الرئيس للحركة هو اجتثاث الاشتراكية وكل شيء يشابهها من على وجه الأرض. ولقد نبغ هذا العداء ضد الماركسيّة من مصدرين: الأول: هو أن الفاشيّة هي نزعة ذات توجه نخبوي طبقي، في مقابل الاشتراكيّة التي تدعو إلى المساواة المطلقة. والثاني: هو

تقوم النظرة الفاشيّة على نزعة قوميّة، تلغي التعددية وتناوئ الديمقراطية والليبراليّة، وتسعى إلى فرض رأي واحد في ضوء مفهوم عن روح الأمة أو روح الجماعة، أو مجتمع الشعب، وهو ما تعبّر عنه الكلمة الألمانيّة

Volksgemeinschaft

الخوف من المد الاشتراكي الشيوعي، خاصة بعد نجاح الشيوعيين في الوصول إلى السلطة في روسيا عام 1917 وفي الصين عام 1948.

2 - **معادة الليبراليّة والديمقراطيّة:** لا تعني معاداة النزعات الفاشيّة للاشتراكيّة الانتصار للديمقراطيّة؛ على العكس من ذلك؛ فقد انتقد النازيون الايديولوجيّة الليبراليّة؛ لأنها سمحت للخطر الماركسي بأن يتسرّب داخلها، وأن يجد لنفسه مكاناً في النظام الديمقراطي، كما انتقد الفاشيون الديمقراطيّة؛ لأنها تقلل من شأن عمليات الانتقاء الطبيعي، والذي يسمح بتمييز أفراد بعينهم أو نُخبٍ بعينها. لقد تطور لدى الفاشيين الاعتقاد بأن



البلدان لن ينقذها من أزمتهما السيئ في طريق الديمقراطية، ولكن من خلال «شعراء يحملون في أيديهم أسلحة» على حد قول بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera زعيم الحزب الفاشي في إسبانيا، كما ذهب جوزيف غوبلز J. Goebbels وزير الدعاية في حكومة هتلر إلى القول بأن الناس على مجرى التاريخ لم يحكموا أنفسهم، فكل حقبة تاريخية صنعها رجال من الأرسقراطيين. ولذلك فإنه على الرغم من وصول كل من هتلر وموسوليني إلى الحكم بطرق ديمقراطية؛ فإن سلوكهما وتوجهاتهما كانت غير ديمقراطية. لقد حوّل كل منهما النظام الديمقراطي إلى دكتاتورية يتحكّم فيها فرد واحد تحيط به طغمة من أنصاره.

3 - محاربة التعددية الثقافية والسياسية: لقد اتجه الفكر الفاشي

إلى العداء الصريح لأي نزعات ليبرالية (سياسية كانت أو ثقافية)؛ لأن الليبرالية تضع مصلحة الفرد وحقوقه السياسية والاجتماعية فوق كل شيء، ولذلك فإنهم يدعون أن في ذلك غمطاً لحق الشعب الذي يجب أن يكون فوق الجميع. ولقد دفعت هذه الرؤية إلى تبني وجهة نظر كلية ذات طابع شمولي، تعادي أي شكل من أشكال التعددية السياسية والثقافية. فالتعددية من الوجهة الفاشية تجلب الانقسام بين فئات الشعب، وتشر قيم التسامح البالية، وتقوض من قوة الدولة. ويترتب على ذلك الرفض الكامل من جانب الفاشيين للتعددية الثقافية؛ فهم يرفضون بشكل قاطع مبدأ النسبية الأخلاقية، والنزعات الفردية الأنانية، بطريقة رفض النزعات المادية الإلحادية نفسها.

4 - معاداة السامية: ارتبطت الصيغ الفكرية للنزعات الفاشية بما عرف

بنزعة معاداة السامية، متمثلة في اليهود. ولقد ربط النازيون بين اليهود وبين العقيدة المادية والفردية والليبرالية، وكما ذهب أحد منظري النازية - وهو تيودور فريتش T. Fritsch - فإن خضوع الفرد إلى الفكرة الليبرالية يعني خضوعه في داخل نفسه إلى العقيدة اليهودية. ومن هنا جاءت الممارسات المرتبطة باضطهاد اليهود وطردهم وتعذيبهم. كما جاء هروب

أعداد كبيرة من المفكرين والمتقنين من ألمانيا إلى أمريكا (نذكر في هذا الصدد أنصار مدرسة فرانكفورت النقدية من أمثال هوركاهايمر وأدورنو وهربرت ماركيز).
وهربرت ماركيز).

5 - الرغبة في السيطرة الشمولية: عن طريق قوة الدولة وهيمنتها وعن طريق امتلاك أكبر قدر من القوة. إن الدولة الفاشية هي دولة طاغية لا تهدف إلى احتكار السلطة على مستوى القرار السياسي فقط، بل تسعى إلى السيطرة على كل مؤسسات المجتمع وتنظيماته فتحرمها من قدرتها على

إنّ الدولة الفاشية هي دولة طاغية لا تهدف إلى احتكار السلطة على مستوى القرار السياسي فقط، بل تسعى إلى السيطرة على كل مؤسسات المجتمع وتنظيماته فتحرمها من قدرتها على الاستقلال.

الاستقلال. ويدخل في نطاق ذلك الكنائس والجامعات والمحاكم والنوادي والمؤسسات الرياضية والجماعات الشبائية. ولم تنج الأسرة من هذه السيطرة؛ حيث فرض على الشباب النّازي في ألمانيا مثلاً أن يخبر عن أعضاء الأسرة من أعداء النازية، وعُدّ ذلك من الواجبات الوطنية. وتكشف هذه السيطرة من الشعارات الشهيرة في الحكم الفاشي؛ ومنها - كما هو الحال عند موسوليني في إيطاليا - أن القائد (الزعيم) هو دائماً على الحق، ومنها أيضاً شعار «الاعتقاد والطاعة والقتال».

6 - النزعة المحافظة: على الرغم من وجود بعض الحركات الفاشية ذات التوجه اليساري الاشتراكي مثل الحركة الفاشية في فرنسا وبلجيكا وبولندا؛ فإنّ جُلّ السياسات الفاشية كانت تنطلق من موقف محافظ، وقد تبدى ذلك في تفضيل الأغنياء عن الطبقة الوسطى والطبقة العاملة، ولم يكن حديث الفاشيين عن الاشتراكية إلا محض هراء؛ فقد أدت السياسات الاقتصادية الفاشية إلى أن تبقى الثروة في أيدي الأغنياء، ولم تبذل أية جهود لإعادة توزيع الثروة على أسس عادلة. بل إن شعارات الفاشيين فيما قبل صعودهم إلى السلطة اختلفت بعد أن احتلوا مقاعدها، فقد رفع موسوليني شعارات اشتراكية



قبل الحرب العالمية، وكان عضواً بارزاً في الحزب الاشتراكي الإيطالي، ولكنه تحول إلى أشد أعداء الاشتراكية بعد الحرب. كما أنه رغم ادعاءات هتلر عن اشتراكية النازيين فإنه رفض عمليات تأميم الصناعات الرئيسية، وكشفت سياساته الاقتصادية عن تحيز واضح لأرباب العمل في مقابل العمال. وحتى لو افترضنا أن لديهم شعارات اشتراكية فإن اشتراكيتهم كانت زائفة، كالتقول بأن المساواة لا تعني المساواة في الدخل والفرص وأساليب الحياة وإنما في السياسة، كأن يتزامن اثنان فاشيان أحدهما من الطبقة الغنية والآخر من الطبقة الفقيرة. هنا تحدث المساواة الحقيقية، أما صور اللامساواة الاقتصادية فهي صور ثانوية لا معنى لها. لقد اتُّهمت الاشتراكية هنا بأنها ضربٌ من النزعة الاندماجية Corporatism، التي لا تعترف باستقلال المؤسسات والتنظيمات وإنما تخضعها جميعاً لنظام واحد، تصبح فيه الدولة فوق الجميع، وتصبح الإدارة داخل كل مؤسسة قائمة على الاندماجية وليس على التعددية. فكل المؤسسات تخضع لقانون واحد، وتسير على نهج واحد، هو النهج الأحادي وليس النهج التعددي، وقد أسهم هذا النظام كثيراً في كبح الحركات العمالية والنقابية والمجتمع المدني.

7 - النزعة العسكرية الإمبريالية: تسعى الفاشية إلى امتلاك القوة وإلى تقوية الدولة إلى أقصى درجة في مقابل المجتمع، ويؤدي هذا التوجه إلى سيطرة النزعة العسكرية على العقل الفاشي، ومن هنا تحتل القيم العسكرية مركز الاهتمام الرئيس للعقل الفاشي. إنه يؤمن إيماناً راسخاً بالنظام والطاعة العمياء والاحتماء بالقوة البدنية والشجاعة. ولا تنغرس هذه القيم العسكرية في العقل الفاشي فقط، بل تتجلى في سلوكياتهم العسكرية المتمثلة في المبالغة في المظهر العسكري، والالتزام بالنظام، وبالرموز الجسدية في الحركة، وفي تنفيذ الشعارات الفاشية. وقد كان قادة الفاشية الكبار (هتلر وموسوليني) يؤمنون إيماناً راسخاً بأهمية النزعة العسكرية، حيث كان هتلر يعتقد أن الإله هو الذي يحمي الأقوياء، ورعايته لهم ترتبط بصلاحيتهم للبقاء. كما كان موسوليني يقول في إحدى عباراته الشهيرة: «إن دقيقة على أرض المعركة تساوي عمراً من السلام»، وإن «من

الأفضل أن يعيش الإنسان ساعةً كأسدٍ بدل أن يعيش سنوات مثل الشاة»، وأن «لا شيء تمّ الحصول عليه عبر التاريخ إلا بإراقة الدماء».

ولقد دفعت هذه النزعة العسكرية - بما يقف خلفها من شعور بالتفوق والقوة - إلى الجرأة على احتلال الدول الأخرى ودحر الشعوب، في نزعة إمبريالية واضحة. وقد ارتبطت النزعة الإمبريالية لدى الفاشيين بقدر كبير من التمرکز حول «السلالة الألمانية»، والنظر إلى الشعوب الأخرى على أنها شعوب من العبيد. وفي ضوء هذه النزعة اتجه هتلر إلى قهر

شعوب شرق أوروبا، معبراً أن غزو هذه الشعوب هو الذي سيحقق الازدهار الاقتصادي لألمانيا في الداخل. وفي المقابل اتجهت أنظار موسوليني نحو أفريقيا، واحتلت قواته إثيوبيا عام 1935. لقد أدت النزعة الإمبريالية للفاشية إلى حرب عالمية كبرى راح ضحيتها ملايين البشر، وأدخلت العالم في صراع دموي لأكثر من ست سنوات.

ارتبطت النزعة

الإمبريالية لدى الفاشيين

بقدر كبير من التمرکز

حول «السلالة الألمانية»،

والنظر إلى الشعوب

الأخرى على أنها شعوب

من العبيد. وفي ضوء هذه

النزعة اتجه هتلر إلى

قهر شعوب شرق أوروبا.

رابعاً: الفاشية: تعكير صفو الزمن الحديث

لقد بشرّ عصر الأنوار بنمطٍ جديدٍ من المجتمع، تتأسس العلاقات فيه على الطريقة المدنية، وتصاغ السياسة فيه على الإرادة العامة للمجموع. لقد كانت آراء جون لوك عن الحكومة المدنية. وجان جاك روسو عن العقد الاجتماعي، بمثابة المواثيق التي ظلّ الناس على العهد بها حتى قامت الثورة الفرنسية، فوضعت الأساس لبناء دولة / أمة تقوم على الحرية الفردية، والحكم الديمقراطي الذي يؤسس لسلطة الشعب، ويجعل الدولة خادمة لمصالحه وإرادته العامة. ولقد أكملت الثورة الصناعيّة الوجه الآخر للتطور، فحولت المجتمع من مجتمع إقطاعي إلى مجتمع رأسمالي يعرف التنوع الطبقي، ويقوم الاقتصاد فيه على رشادة استخدام رأس المال، وتنظيم الأسواق وعقلانية الإدارة.

لقد شكّلت الثورتان انطلاقة لمجتمع حدّثي جديد. ولكن وعْد التنوير لم يتحقّق؛ فقد سارت الثورة الصناعية في تكوين نظام رأسمالي سعى إلى تراكم الثروة عبر استعمار أجزاء كبيرة من العالم، بدءاً من العالم الجديد في الأمريكتين وفي أستراليا، وانتهاءً بدول في آسيا وأفريقيا. لقد حوّل النظام الرأسمالي الحداثة من حادثة واحدة بالانطلاق والتجدد الخلاق، والحرية الفردية والعقلانية والرشد، إلى حادثة طامعة، يموت الإنسان فيها على أصداء تراكم الثروة والقوة، فيعاد إنتاج أزمة التفاوت الطبقي وعدم العدالة، ويعاد إنتاج التباعد بين الفقراء والأغنياء (على مستوى الفروق بين الدول وداخل الدولة الواحدة). لقد تحول العقل من عقل يسعد الإنسان إلى عقل يقتل الإنسان قتلاً، ويسجنه داخل قفص من حديد على ما ذهب ماكس فيبر أو يقتل قدراته الإبداعية، حيث صار عقلاً أدائياً أو عقلاً أحادياً كما ذهب أنصار مدرسة فرانكفورت¹⁷.

ولقد كانت النزعات الفاشية - بصورها المختلفة - أحد مظاهر أزمة الرأسمالية كما أوضحنا آنفاً، ونؤكد هنا أنها عكّرت صفو المشروع الحدّثي، وأكدت أن وعد عصر التنوير لا يمكن تحقيقه تحت وطأة النظام الرأسمالي بتناقضاته المختلفة. ونحاول أن نختم هذا المقال بالإشارة إلى بعض الآثار السلبية للفاشية، التي أهالت التراب على كل القيم الإنسانية التي شكّلت البذرة الحدّثية الأولى للمجتمع الأوروبي.

1 - الحرب أداة قوية للرأسمالية:

عندما ظهرت الفاشية كانت أوروبا بالكاد تخرج من الحرب العالمية الأولى، ولكن النزعات الفاشية أدخلتها في أتون الحرب من جديد، وقد كان من الطبيعي أن يحدث ذلك؛ نظراً للنزعة العسكرية والإمبريالية المفرطة التي اتسمت بها النزعات الفاشية، فقد قاد هتلر هجوماً على الدول الأوروبية في شرق أوروبا وغربها وجنوبها، كما انخرط موسوليني في نفس الحرب

17 - راجع كتاب ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو، بعنوان: جدل التنوير (شذرات فلسفية) ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، لبنان، 2004.

موجّهاً الحرب ناحية الشمال الأفريقي. وقد كانت الحرب العالمية الثانية التي استمرت حوالي ست سنوات من أعتى الحروب وأقساها، وراح ضحيتها أكثر من 65 مليون قتيل، أي حوالي 2% من سكان العالم حينئذٍ¹⁸. هذا فضلاً عما خلّفته من خوف وذعر لدى المستضعفين من المثقفين والفقراء، أو من أهل الشعوب التي أصابتها نزعة معاداة السامية كاليهود.

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية على خسائر فادحة كما هو واضح من الأرقام، ولقد انتبه العالم بعد الحرب إلى أهمية السلام، فأنشأ

إنّ النزعات الفاشية التي اتخذت طابعاً أصولياً ايديولوجية أصولية ذات نزعات عدائية وحربية. لعلّ هذا يكون أحد الأسباب لانتشار النزعات الأصولية في أرجاء كثيرة من العالم وأيضاً لانتشار النزعات الفاشية الجديدة في أماكن كثيرة من أوروبا وأمريكا.

منظمة الأمم المتحدة ومنظماتها الفرعية، وأصدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. ولكن هذا المسعى لم يؤدّ إلى سلام كامل، فقد أصبحت الحرب أساساً في الأداء الرأسمالي، وأصبحت عملية إنتاج السلاح والاتجار فيه عبر العالم أحد الأدوات الرئيسة لتحقيق أهداف الرأسمالية في الاحتكار والسيطرة الإمبريالية. ويمكن القول في هذا الصدد أن النزعات الفاشية التي اتخذت طابعاً أصولياً قد حوّلت الرأسمالية إلى ايديولوجية أصولية ذات نزعات عدائية وحربية. لعلّ هذا يكون أحد الأسباب

لانتشار النزعات الأصولية في أرجاء كثيرة من العالم، وأيضاً لانتشار النزعات الفاشية الجديدة في أماكن كثيرة من أوروبا وأمريكا.

2 - إحياء الطغيان الإمبراطوري:

تميّزت الإمبراطوريات على مرّ العصور بصور مركزية من الحكم، واتسمت هذه الصور في الغالب بنظم للحكم المؤسس على الطغيان، الذي يسيطر فيه الإمبراطور - من خلال جنوده وأدواته الايديولوجية ذات الطابع

¹⁸ - الرقم مأخوذ من المصدر التالي: خسائر الحرب العالمية الثانية www.ar.wikipedia.org



الأبوي - على شعب الإمبراطورية، عاملاً في كل الأوقات على جلب الخراج الذي ينفقه على الجيوش وعلى نظام الحكم الإمبراطوري. ويفترض دائماً أن النظام الحديث الذي دخل بعد الثورتين هو نظام يؤسس لنمط مختلف من الحكم؛ إنه يهجر الحكم الإمبراطوري تماماً، فلا يقوم على المركزية قط؛ ولا يميل إلى أي شكل من أشكال الطغيان، بل يؤسس الحكم على الديمقراطية.

ولكن النزعة الشعبوية عارضت هذا التوجه تمام المعارضة؛ فقد عملت على تقوية الدولة إزاء المجتمع، كما عملت على عسكرة المجتمع والحكم، وحولت الحكم إلى حكم الرجل الواحد الذي لا يسمع إلا رأيه. وبذلك تكون الفاشية قد أعادت روح الطغيان الإمبراطوري، وخلفت شكلاً من أشكال الاستعباد الحديث. لقد اتهم هيغل - ومن قبله مونتسكيو - المجتمعات الشرقية بأنها مجتمعات تقوم على سيطرة حكم الفرد الواحد، وأنها تميل إلى تطوير نوع خاص من الاستعباد أطلق عليه الاستعباد الشرقي¹⁹، Oriental Dispotism. وإذا ما وضعنا نظام الحكم الفاشي في مقابل هذا الطرح، أمكن طرّح افتراض جديد حول الاستعباد الغربي Occidental Despotism. إن هذا الاستعباد الغربي قد استبد بالحكم بشكل يفوق الطغيان الإمبراطوري الذي وسمه هيغل بالاستعباد الشرقي. وفي ضوء ذلك لا يكفي القول بأن الفاشية (والنازية) عمقت نزعة التمركز حول السلالة، ولكن لا بُدَّ من تعميق الافتراض بأن الفاشية قد عمقت التفوق الغربي على سائر شعوب العالم، رغم أنها عملت على تحطيم الغرب نفسه. لقد عمّقت الفاشية الهيمنة الغربية على العالم. إن الفاشية قد هُزمت بحق، ولكنها تركت الزمن الحديث وهو مثقل بنزعة كبيرة نحو الهيمنة، ونحو تطوير أدوات الاستعمار الجديد للسيطرة على الشعوب الضعيفة. ويتوأكب هذا الاتجاه مع التوجه نحو النزعة العسكرية، وكلاهما قد أحدث شرخاً في جدار منظومة الحداثة وقيمها ووعداها بالحرية والديمقراطية والسلام.

19 - انظر كتاب هيغل حول المجتمعات الشرقية: هيغل، العالم الشرقي، الجزء الأول والثاني، ترجمة امام عبد الفتاح امام، لبنان: دار التنوير، 2009.

3 - حقن الكراهية في جسد الحداثة:

لم تُعانِ منظومة الحداثة - بفكرها الحرّ ونزعتها الليبرالية - من حقن نزعة الحرب والطفان في جسدها فقط، بل عانت أيضاً من نزعة الكراهية التي بثتها الفاشية والنازية في هذا الجسد. لقد أظهرت النزعات الشعبوية ذات الطابع الفاشي والنّازي - وغيرها من النزعات في أوروبا وخارجها - اتجاهاً عدائياً نحو الشعوب الأخرى، ونحو فئات بعينها من السكان.

ورغم أن النزعات الفاشية الشعبوية في أوروبا - والتي ظهرت في

عشرينيات القرن الماضي، واستمرت حتى قرب منتصفه - قد انقضى عهدها؛ فإن ما بثته من أفكار عدائية، ونزعات بالتفوق والكراهية قد ظلت في رحم النظام، وبدأت تنبعث من جديد في معظم الدول الأوروبية. فالحديث الآن لا ينقطع عن نمو النزعات المحافظة، والنزعات الفاشية في الدول الغربية بل إن هذه النزعات نجحت في تأسيس أحزاب وتنظيمات، وباتت أحد العناصر الفاعلة في تشكيل الخطاب الانتخابي والتنافس السياسي في فرنسا وألمانيا وإنجلترا

والدول الاسكندنافية. وتطور هذه النزعات توجهات عدائية ضدّ المهاجرين من مجتمعات أخرى، وضد الأقليات الغربية. وتسبب هذه النزعات الفاشية الجديدة قلقاً كبيراً للحكومات الأوروبية (والأمريكية أيضاً)، وهي تتواكب مع ظهور نزعات أصولية في أرجاء متعددة من العالم.

خاتمة

لقد سعينا في هذا المقال أن نتبع المسيرة الفكرية والسياسية للنزعة الشعبوية في أوروبا، وأن نتعرف على خصائصها وممارساتها، والآثار التي تركتها على جسد المجتمع والدولة. ولقد دلّنا هذا المسعى البحثي إلى

لا يكفي القول بأن الفاشية (والنازية) عمقت نزعة التمرکز حول السلالة، ولكن لا بدّ من تعميق الافتراض بأن الفاشية قد عمقت التفوق الغربي على سائر شعوب العالم، رغم أنها عملت على تحطيم الغرب نفسه.



طرح سؤال مهم: هل يمكن القول بأن النزعات الفاشية قد حولت وعد التنوير إلى سراب؟ نعم يمكن القول بذلك في ضوء فهم الدور الذي قامت به النزعات الفاشية في تعكير صفو الزمن الحديث، بما قدمته من أفكار معادية لفكر الأنوار وللنزعات الليبرالية المنبثقة عنه، وبما قدمته من ممارسات للتهميش والاستبعاد، وبما مارسته من طغيان واستبداد على الشعوب، وبما تركته من آثار في جسد المشروع الحديثي. لقد أوصلت النزعات الشعبوية (الفاشية والنازية ومن سار في ركبهما) للتوجه الانقسامي الشعبوي، والفكر الأصولي، الذي يبدو أنه أصبح مستشرياً في جسد المشروع الحديثي، ما يلبس أن يعاود الظهور مرة ومرة، لا في أوروبا وحدها، ولكن في أرجاء كثيرة من العالم، ولا في صورته الفاشية أو النازية وحدها، ولكن في صور متعددة تحتمي خلف الدين تارةً، والعرق تارة أخرى، والسياسة تارةً ثالثة، إلى درجة أنها تُدخل العالم في عراك جديد، عبر تجليات ظاهرة في أحيان كثيرة، ولكن ما يكمن منه ويستتر هو الأكبر والأفدح.